

## حوار المياني مع "نهاية التاريخ" (\*)

### هيجل ونيتشه والإنسان الأخير

- شبيغل: السيد فوكوياما، ذكرتم في محاضرتكم الشهيرة عام ١٩٨٩ - التي وسعتموها الآن إلى كتاب - فرضية مؤداها أن الديمقراطية الليبرالية - بعد انهيار الشيوعية - هي النقطة النهائية للثورة الإيديولوجية الإنسانية. إننا نقف الآن بالتأكيد في نهايات الحرب الباردة. لكن ليس في «نهاية التاريخ». إننا نبدأ بالأحرى فصلاً جديداً من فصول التاريخ!

\* فوكوياما: ما تقصدونه صحيح بمعنى من المعاني. بل إنه في بعض كلمات غورباتشوف وبوش قيل أحياناً: في الحقيقة يبدأ الآن التاريخ. لكن الذي يتحدث عن التاريخ بهذا المعنى يقصد الأحداث الكبيرة. أما أنا فأستخدم مفرد «التاريخ» بشكل مختلف تماماً.

- شبيغل: كيف؟

\* فوكوياما: أعني بالتاريخ ما قصده هيجل أو ماركس، أي خطوات التطور الشاملة للمجتمعات البشرية، من الثقافات الزراعية، إلى الملكيات وحتى الديمقراطية الليبرالية، وليس بالضرورة أن يحدث ذلك في خط مستقيم،

(\*) هذه ترجمة لحوار أجرته مع فرانسيس فوكوياما مجلة شبيغل Der Spiegel الألمانية عدد ١٥/السنة ٤٦/٦ إبريل ١٩٩٢.

لكنه على أي حال ليس دائرياً. فهناك توجه إلى هدف. وهذا الهدف «الديموقراطية الليبرالية» قد تحقق في خطوته الأساسية.

- شبيغل: ما الذي يجعلك متيقناً هكذا، ألا يمكن أن تحدث انقطاعات أو تراجعات في هذه المسيرة التي تبدو بدون عقبات جدية الآن؟

\* فوكوياما: طبعاً يمكن أن تحدث تراجعات. ففي روسيا مثلاً لا نعرف إن كان للديموقراطية الحالية مستقبل. ولست عراًفاً لكي أزعّم أن المسيرة ماضية قدماً إلى الأمام دوغماً تردد.

- شبيغل: لكنكم في كتابكم الجديد تتحدثون عن «مسار هادف للتاريخ الإنساني»، الذي «سيقود في النهاية أكثر البشر إلى الديموقراطية الليبرالية». ويعني هذا أن المسيرة تمضي قدماً. ويزدكرنا هذا الفهم بماركس بشكل قوي، الذي سبق أن رأى أن التاريخ سيقودنا إلى فردوس من التأخي الإنساني.

\* فوكوياما: قبل وقت قصير نعتني أحدهم في باريس بالماركسي الأخير أو آخر الماركسيين! ورؤيتي التاريخية في الحقيقة تشبه الرؤية الماركسية. لكنني مختلف عن ماركس اختلافاً كبيراً في قضية التغير في التاريخ، إذ لا أذهب مثله إلى الميكانيكية الاقتصادية.

- شبيغل: لكن أليست الحاجات المادية هي العوامل القوية الدافعة في التاريخ؟

\* فوكوياما: لا! ففي أهمية العامل المادي، سعي الإنسان الملح للاعتراف، واثبات الوجود. وهذه العملية تجري بطريقة غير اقتصادية. ففيها لا يفكر المرء بداية بأرباحه المادية. إنه يريد الاثبات فقط. وهذا كل شيء. فماركس أكد على اللون الخطأ من ألوان الغائبة التاريخية. أما هيجل فقد رأى التقدم في التاريخ بشكل أوضح. تحدث هيجل عن الكفاح العقلاني من أجل اثبات الوجود. ورأى أن القومية تشكل الجانب اللاعقلاني من أجل اثبات الوجود. ولقد رأى أن القومية تشكل الجانب اللاعقلاني من ذلك الكفاح. ولم

ينكر هيغل أهمية السعي نحو الرفاه المادي، لكنه وضع التقدم في الوعي في المقدمة. ولذا أرجع إلى هيغل وأستند إليه وليس إلى ماركس.

- شبيغل: اعتبر هيغل نظامه الفلسفي ذروة وخاتمة الأنظمة المعرفية. ورأى أنه بذاك النظام حصل الإنسان على المعرفة اليقينية النهائية، أو بعبارة هو، حققت الروح وعيها بحريتها! ونهاية التاريخ هذه هي أيضاً نهاية فلسفة التاريخ: أي إن كل الأساسي والمهم قد قيل! فلماذا نحتاج الآن إلى كتابكم الواقع في خمسمائة صفحة عن «نهاية التاريخ»؟

\* فوكوياما: لست ذلك الهيولي المؤمن بالتأكيد، لكن عللاً كثيرة لضرورات الديمقراطية، والضرورات الإنسانية للوصول إليها، أدركها هيغل وذكرها فعلاً.

- شبيغل: هيغل إذن بالنسبة لك نقطة بداية أو منطلق...؟

\* فوكوياما: ... وهو مجال استرشاد أيضاً. لكن بعد ذلك مباشرة تأتي الوقائع.

- شبيغل: ومن هذه الوقائع أدركتم أن صراعات الأنظمة الايديولوجية قد انتهت. اليست هذه النتيجة منحوتة خشبية غير متقنة؟

\* فوكوياما: أرى أن الاتجاه العام يشير إلى ذلك. فخلال آلاف السنين تصارعت مختلف التشكيلات الاجتماعية وتنافست. وسقط في ذلك الصراع هذا الشكل أو ذاك، أي أنه خرج من التاريخ لعوامل تناقض داخلية. وآخر الأمثلة على ذلك الاشتراكية باقتصادها المخطط. وليس بين أيدينا الآن إلا الديمقراطية التحررية بمثلها السياسي المعروف. ولذا أتحدث عن نهاية التاريخ.

- شبيغل: النهاية النهائية للتاريخ؟ أم أن فرضيتكم لا تنطبق على غير العالم الغربي وربما اليابان؟

\* فوكوياما: أفرق في كتابي بين الدول التي ما تزال في «مسار التاريخ» وتلك التي بلغت نهايته. وهذا مثل القطار، تصل عربته الأولى، وتكون عرباته

الأخرى ما تزال سائرة تحتاج إلى وقت للوصول والاستقرار. لكن عربات القطار مترابطة، ولذا ستصل حتماً إلى موطن الاستقرار ذاته. وأزعم أنا أن موطن الاستقرار والهدف المقصود هو الديمقراطية الغربية.

- شبيغل: يتألق العصر الذهبي هذا بحيث يكون كل إنسان حراً وسعيداً؟ هيجل كان أكثر تشككاً، فقد قال في كتابه: «فلسفة التاريخ»: إن التاريخ ليس موطن السعادة. بل إن أفق السعادة أوراق بيضاء في التاريخ.

\* فوكوياما: هل نهاية التاريخ أمر جيد أم لا، أنا لا أعرف أيضاً. كل ما أقوله، إنها ستأتي! إنها هنا! أما مسألة أن حياة البشر ستصبح فعلاً أفضل بالتقدم العلمي، وأسعد بالديموقراطية؛ فهذه أمور لا تتعلق بالمسار التاريخي.

- شبيغل: ألا تجعل الانتصارات من المنتصرين بلهاء وكسالى؟ وإذا كان ذلك صحيحاً، ألا ينطبق هذا على المنتصرين في التاريخ أيضاً؟

\* فوكوياما: هذا صحيح. وربما أضرّ بالديموقراطية انتصارها الكبير والنهائي. فلو قلنا إن الديمقراطية ستجلب السلام والنمو مثلما وعدت وتعد - ولكن ماذا بعد ذلك؟ إن هذا يعني انتفاء المجازفة. وهذا يناقض طبيعتنا. فالإنسان يحتاج إلى المغامرة. وقد يعتمد إلى إثارة حروب جديدة.

- شبيغل: ... من أجل المغامرة فقط؟

\* فوكوياما: نعم من أجل الخروج من الملل! لقد رأى نيتشه هذا الخطر. ففي كتابه عن «زرادشت» هناك فقرة عن «الإنسان الأخير» الخالي من العواطف ومن الأحكام المسبقة، والذي لا يُقدم على مجازفة حقيقية. وهويتحول بذلك إلى وحدة من قطيع ساكن وخائف، إلى حيوان استهلاكي. والوصول إلى هذه الحالة يدفع من جديد باتجاه الاشتياق للقوة والعظمة. وحتى لو لم نغض مع نيتشه إلى نتائج الأخيرة المتطرفة، نستطيع القول إن الديمقراطية السواسية ستدفع عندما تبلغ حدودها القصوى إلى ذلك الحنين من جديد نحو العظمة.

فالبشر يريدون أموراً أكثر من العضوية في مجتمع ديمقراطي تسوي عالمي مُرفّه واستهلاكي .

- شبيغل: لكن أليست هذه الثنائية «المتافيزيقية» عند هيغل ونيتشه بين «مزاج الانتصار» و«القرف من مجتمع المساواة» تشاؤمية لا عقلانية؟ إنها يسجنان «العقل المتأله» والإنسان ذا الغرائز في قفص، ثم يأملان أن تنشأ بينهما علائق ود ورحمة وتساكن وسكونية؟

\* فوكوياما: لا! فأنا لا أرمي من وراء ما قلته للربط بين هيغل ونيتشه. جلّ ما أريده القول إن الرؤية السوداء لنيتشه هي البديل الوحيد لعقلانية هيغل الباردة. إن من يشارك هيغل في إيمانه، وانتصار الديمقراطية، عليه أيضاً أن يعترف بوجود أخطاء، وليس هناك أحد أكثر، إصابة في نقد هيغل من نيتشه؛ ولذا علينا أن لا نتجاهل إنذاره لنا من الملل الكوني والتشاؤم التاريخي .

- شبيغل: هل لانحيازكم إلى جانب تفأؤلية هيغل التاريخية علاقة بوضعكم كمستشار للحكومة الأميركية؟ أي هل تريدون من وراء تفأؤليّتكم بعث الشجاعة في المسؤولين الأميركيين من أجل تجاوز الأزمة الحالية؟ .

\* فوكوياما: ليست الأزمة الحالية من العمق بالدرجة التي تبدو عليها الآن. الصحيح أن عندنا جهوداً اقتصادياً، والجمود والكساد ينالان هذه المرة من الموظفين أكثر مما ينالان من العمال. لكن، إذا نظرنا إلى الأمور في المدى الطويل فإن هذه الظواهر الآتية موجات سطحية لا عمق لها. فليس هناك خبير اقتصاد محترم عندنا قال إننا أمام انهيار لا مردّ له .

- شبيغل: لا يمكنكم الإنكار أن الاقتصاد الأميركي يعاني مشكلات بنيوية كبيرة.

\* فوكوياما: طبعاً لا. وهذا هو السؤال الكبير الموجّه إلينا بعد نهاية الحرب الباردة: كيف نستطيع من جديد تطوير قدرة تنافسية معتبرة؟ فالبناء التقني التربوي متروك عندنا إلى حد كبير بيد اقتصاديات السوق. والحقيقة أن البناء

والتدريب كانا دائماً من مهام الدولة. إن علينا أن نتعلم بعض الشيء في هذا المجال من الألمان. ففي الولايات المتحدة تمضي نسبة أكبر من الشبان إلى الجامعات، لكننا لا نملك كوادراتقنية مدرّبة وكافية. وقد حلّت ألمانيا المشكلة بطريقة أفضل.

- شبيغل: واليابان؟

\* فوكوياما: الحلول اليابانية لا تناسب الولايات المتحدة. مع أن الأميركيين الآن شديداً الإعجاب باليابان، ويقلدونها في أشياء كثيرة. وفي السابق كان الأمر معكوساً.

- شبيغل: هل تتلاءم الديمقراطية اليابانية بتقاليدها السلطوية الخاصة مع النمط الغربي للديمقراطية، الذي تعتبرونه النمط النهائي؟

\* فوكوياما: من ناحية الشكل ما يزال التلاؤم ظاهراً. لكن هناك في الحقيقة إشارات وأماثل لنمط آسيوي خاص. ففي تايوان وسنغافورة مثلاً ظهرت اقتصاديات السوق بدون ديمقراطية، بل بشخصية أبوية على رأس النظام، أي ديكتاتور رؤوف. أما الصين فتموّج متفرّد. فتورة الطلاب في ساحة تيانانمن (السلام السماوي) كانت مثل الثورة الروسية عام ١٩٠٥. وستكون في الصين ثورة تشبه ثورة أكتوبر الروسية، لكنها ستكون ديمقراطية، وطبعاً بعد فناء الزعماء القدامى للحزب الشيوعي هناك. لكن هناك حساسية أخرى لا بد من التنبّه إليها. فلي كوان يو الزعيم السنغافوري السابق قال مراراً إن «النظام السلطوي» يتوافق أكثر مع طبيعة الكونفوشيوسية، ثم إنه من الناحية الاقتصادية أقوى وأبقى. ويبدو أنه لم يُجانب الصواب كثيراً في زعمه ذاك.

- شبيغل: على فرض صحة مقولة لي كوان يو، كيف يتلاءم ذلك مع فردوسكم المستقبلي الذي حضر زمنه الآن، والذي يرى تلازماً بين اقتصاديات السوق والديمقراطية؟!.

\* فوكوياما: ربما لن يكون هناك تلاؤم. الأمر مفتوح. ما أراه أن

الإيديولوجيا الآسيوية، التي تحد من حرية المواطنين، وتجلب لهم النمو والرفاه في الوقت نفسه، تُثبت أنه لا تلازم هناك بين حرية الأسواق وحرية المواطنين. ومراقبة وتتبع نمط شرق آسيا هذا أكثر حيوية من مراقبة انهيار نظام شرق أوروبا. فقد يكون ما يحدث في شرق آسيا سبيلاً فرعياً لمسار التاريخ.

- شبيغل: يعتبر تدبير البيئة في العالم الآن الهم الرئيسي للبشرية. لكنه لا يلعب دوراً ملحوظاً في رؤيتكم الشاملة. فصوركم لعالم ما بعد التاريخ تتعامل مع الاقتصاد والتقنية مثل السابق - الديمقراطية بطيئة في اتخاذ قراراتها».

\* فوكوياما: هذا غير دقيق. لنأخذ على سبيل المثال مسألة ثقب الأوزون. فأنا أرى أن الغرب وصناعيه تعرفوا بسرعة نسبياً فيما يتصل بالمسألة مقارنة مع دكتاتوريي العالم الشيوعي السابقين، أو استبداديي الدول الإسلامية. ففي بلد لا يستطيع المواطنون فيه أن يتظاهروا ضد بناء مفاعل نووي أو مصنع كيماوي، يمكن أن تحدث يوماً كوارث مثل كارثة تشيرنوبيل.

- شبيغل: لقد كتبتم أن البشرية تحتاج إلى نمو اقتصادي مستمر، إلى أين يمكن أن يتجه هذا النمو بعد؟

\* فوكوياما: إن النمو يمكن أن يكون نوعياً وليس كميّاً فقط. فلقد أخطأت كل التوقعات التي رأت أن النمو سيتوقف؛ من مالتوس وإلى نادي روما، فالتقنية تتطور باستمرار؛ وهذا شكل من أشكال النمو.

- شبيغل: ألم تصل أزمة البيئة إلى الحدود التي ينبغي عندها التفكير في الحد من الحريات الديمقراطية؟

\* فوكوياما: هذه الفكرة الغربية لم أسمعها إلا في ألمانيا. ففي برلين تحدثت مرة مع واحد من «الخضر» فقال في المناقشة: الحقيقة بدلاً من الأكثرية! وهذه فكرة لا تخطر على بال أشد أنصار حماية البيئة حماساً في الولايات المتحدة؛ فالألمان قليلو الثقة بالديموقراطية وقدراتها وإمكاناتها. بدون الصناعة ينهار الاقتصاد العالمي...

- شبيغل: . . . وبالصناعة نستمر في تدمير البيئة، وفي النهاية الاقتصاد العالمي أيضاً.

\* فوكوياما: هناك الرغبة في النمو الاقتصادي المستمر. وهناك الرغبة في بيئة سليمة وصحية. وفي الدولة الديمقراطية، يمكن للمواطنين النقيدين، أن يضغطوا وأن يحصلوا على استجابة. فالدولة وحدها هي القادرة على تحمل الإنفاق على تحسين البيئة، وعلى وضع الأمور في نصابها بعدل وتخطيط. وقوانين حماية البيئة هي المثل الأوضح على صحة رؤيتي بأن الديمقراطية تكون أكثر فعالية في المجتمعات التي يسودها اقتصاد السوق. إنها أكثر أشكال الحكم ملائمة.

- شبيغل: لكنها هي أيضاً تلك النزعة في الرضا التاريخي عن النفس، التي تُغري بسلوك غير مسؤول تجاه الطبيعة.

\* فوكوياما: غير صحيح. إن علينا واجبات مهمة تجاه عالمنا الطبيعي. لكن علينا الواجبات نفسها تجاه عالمنا الفكري والروحي. فلا أحد في البلدان الغربية يعترض على الديمقراطية، لكن لم يعد هناك يقين حول هذه المسألة المهمة. أما الفلاسفة فيقولون إنها جزء من التطور الثقافي للغرب، أي أنها شيء من طبيعة الأشياء. وهذا محزن، وعلينا أن نتذكر دائماً أن الغرب وحده وصل إلى هذا القدر من التسامح والتعددية، وهما الأمران اللذان نعتبرهما الآن من البديهيات.

- شبيغل: هل تجدون أنه مشروع من ضمن التعددية الثقافية الغربية التطلع إلى مثاليات ثقافية أخرى غير تلك المعروفة في الغرب؟

\* فوكوياما: لست مستعداً للترحيب بتعددية تهتدد القوائم والمستقر. فعندما يصير كلٌّ على الانتماء المغاير بحجة الديمقراطية والتعددية، يضيع جوهر الاجتماع المشترك. إن الإشكالية التي على كل منا النفاذ إلى أعماقها أن الديمقراطية لا تقوم فقط على العقل والتعقل والعقلانية. فهناك عوامل وقيم غير عقلانية تلعب دوراً مهماً. علينا أن لا ننسى أن مؤسسي أميركا كانوا



مهاجرين متدينين ورعين. وتدينهم عامل مهم في جسّهم الاجتماعي، وشعورهم بالواجب، ومثالياتهم الأسرية.

- شبيغل: هكذا تحتاج دولتك الباقية بعد نهاية التاريخ إلى دين واحد وشامل يرضي حاجة الناس إلى اللاعقلي؟!!

\* فوكوياما: لا! لكنني متخوّف من تضاؤل وانكماش الأساس الديني للاجتماع الغربي. نسب الطلاق المرتفعة، وانعدام الإحساس بالمسؤولية، والعنف... إلخ كل تلك ظواهر مهذّدة. فالدين رابطة شديدة الأهمية للمجتمع، لكن على الدين أن يقبل الانضواء في الديمقراطية.

- شبيغل: عندما يتأمل الدارس للتاريخ كثيراً، ألا يريد هو أيضاً المشاركة في صنعه؟ هل عندكم مطامح سياسية؟

\* فوكوياما: بالكاد! سأشعر برضا كبير في منصب جامعي. أما في السياسة فلا أعتقد أنني أملك الاستعدادات الضرورية. الرئيس الأسبق نيكسون قال مرة: إن العامل في السياسة اليوم في الولايات المتحدة لا يرغب في العمل غداً؛ وذلك لما يتطلبه من جهد رهيب، وخصال رهيبة! إن عليه إن يكون شديد الطموح، وشديد الأنانية. وهذه مشكلة من مشكلات ديمقراطيتنا.

